الوقـــــت

الدكتور محمد راتب النابلسي

جامعة دمشق / سوريا

وما حقيقة الزمن؟ إنه البعد الحركي الرابع للأشياء، فالجسم المادي له بعدان سطحيان: طول وعرض، وبعد حجمي: هو عمق أو ارتفاع ... فإذا تحرك هذا الجسم صار الزمن بعدا رابعا له، ويضيف علماء الفيزياء أن الجسم إذا تحرك بسرعة توقف الزمن، وأصبحت كتلته لا نهائية، وإذا تجاوز سرعة الضوء تراجع الزمن، وإذا قصر عنها تراخى الزمن، وشرح هذا يطول، ويحتاج إلى محاضرات على مدرجات الجامعات، قال تعالى: ﴿**والشمس تجري لها لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ "سورة يس الآية 38"، فحركتها سبب حصول الزمن، لولاها ما اتسقت أيامه، ولا انتظمت شهوره وأعوامه، ولا اختلف نوره وظلامه.

والسؤال الآن: أين نجد مفهوم الزمن في التصور الإسلامي للكون، والحياة والإنسان؟ وأين موقعة في الكتاب والسنة؟ وما علاقة الزمن بالمخلوق الأول المكرم الإنسان؟ وهل يمكن أن تتسع تلك العلاقة وتقوى حتى تبلغ درجة التطابق؟ أي هل يمكن أن نقول: الإنسان في حقيقته "زمن"؟.

حينما يتفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض، ويحكم من خلال مبادئ عقله أن لهذا الكون خالقا عظيما، ومربيا ومسيرا حكيما.

الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على الحكيم الخبير، وأن هذا الخالق عظيم في خلقه، كامل في أفعاله، ومن لوازم كماله ألا يدع عباده بلا تعريف، ولا تبيين، ولا منهج من أمر، ونهي، وإعذار، وإنذار، ووعد، ووعيد.

لهذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ففي الكتب المنزلة تعريف للإنسان بخالقه ومربيه، تعريف بحقيقة الحياة الدنيا، ومهمة الإنسان فيها، وقد ورد في البيان الإلهي أن البشر مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض تجري من تحتها الأنهار، أكلها دائم وظلها، لهم فيها ما يشاؤون خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم.

وشاءت حكمة الله أن يجعل لهذه الحياة العليا الأبدية، حياة دنيا إعدادية، وخلق الإنسان فيها ليزكي نفسه، ولتكون هذه التزكية ثمنا لتلكم الجنة، لهذا منح الله الإنسان مقومات هذه التزكية، كونا مخرا تسخير تعريف وتكريم، وعلا هو أداة المعرفة ومناط التكليف، وفطرة تكشف للإنسان خطأه وانحرافه، وشهوة يرقى الإنسان بها صابرا شاكرا وحرية اختيار تثمن العمل وتقي الزلل، وقوة فيما يبدو تحقق الاختيار، ومنهجا يصحح المسار، كل هذا على مسرح مكاني هو الأرض، وفي ظرف زماني هو العمر، فالعمر رأسمال الإنسان في حياته الدنيا، إذا أنفقه الإنسان في تزكية نفسه كان ثمنا لجنة ربه، قال تعالى: ﴿**إن المتقين في جنة وعيون۞ ءاخذين ما ءاتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين۞ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون۞ وبالأسحار هم يستغفرون۞ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم۞** ﴾ سورة الذاريات الآية 15 وقال تعالى: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هآؤم اقرء واكتابيه۞ إني ظننت أني ملاق حسابيه۞ فهو في عيشة راضية۞ في جنة عالية۞ قطوفها دانية۞ كلوا واشبوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية۞** ﴾ سورة الحاقة الآية 19.

من خلال المقدمة في كليات العقيدة يتضح أن الزمن الذي هو عمر الإنسان هو رأس ماله الوحيد، وهو وعاء عمله الصالح الذي جعله الله ثمنا للجنة، قال تعالى: ﴿**والعصر۞ إن الإنسان لفي خسر۞ إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر۞** ﴾ سورة العصر.

العصر هو الزمن، بل مطلق الزمن وهو من خلق الله تعالى، إذ لا يصح أن نسأل: متى كان الله؟ لأنه خالق الزمان، ولا أين الله؟ لأنه خالق المكان، وقد أقسم الله به "والعصر"، ومن الثابت لدى المفسرين أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه فذلك ليلفت أنظارهم إليه، ولينبههم إلى جليل منفعته وعظيم أثره، وما أقسم الله للإنسان بالعصر إلا لأن الإنسان في حقيقته زمن، إنه بضعة أيام، كلما انقضى ضع منه، أو لأن أمن ما يملكه الإنسان هو الزمن.

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ويأتي جواب القسم:

﴿والعصر۞ إن الإنسان لفي خسر۞ الا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر۞﴾ سورة العصر.

من هو الإنسان الخاسر؟ إنه أي إنسان (أل) تفيد استغراق جنس الإنسان وكيف يخسر الإنسان؟ ولماذا؟ ألم نقل: إن الإنسان زمن، أو إن أثمن ما يملكه هو الزمن، أو إن رأس ماله هو الزمن، وهل الخسارة الحقيقية في التجارة إلا أن يخسر الإنسان رأس ماله؟ والزمن يعني الحركة نحو هدف ثابت، وهو الموت أليست هذه الحركة التي هي مضي الزمن، تستهلك عمر الإنسان، ورأس مال؟ فخسارة الإنسان تعني أن الزمن يستهلكه ويقربه من أجله فإذا بلغ أجله، ووصل العدد التنازلي إلى الصفر، انتهى الإنسان واستهلكه الزمن، وأصبح خبرا بعد أن كان مخبرا، قال الشاعر:

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

بينا يرى الإنسان فيها مخبرا حتى يرى خبرا من الأخبار

ولقد شاءت إرادة الله وحكمته، أن يكون الموت نهاية كل حي فكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

كل ابن انثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

إذا فرأس مال الإنسان عمره ومضي الزمن وحده ... مضي الثواني والدقائق والساعات، مضي الأيام والشهور والسنوات، يستهلك رأسماله شيئا فشيئا.

فإذا استهلكت حركة الزمن كل عمره، فقد رأسماله، وتحققت خسارته قال تعالى: ﴿**فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**۞﴾ سورة الزمر

﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا۞ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا۞ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا۞ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا ءاياتي ورسلي هزوا۞**﴾ سورة الكهف الآية1،3، خسارة الإنسان أن ينفق عمره الذي هو رأسماله الوحيد إنفاقا استهلاكيا في غير ما خلق له.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته: (أيها الناس، لا خير في العيش إلا لعالم ناطق، أو مستمع واع، أيها الناس، إنكم في زمن هدنة، وإن السير بكم لسريع، وقد رأيتم الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود).

فقال له المقداد: يا رسول الله، وما الهدنة؟ ... قال: (دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست عليكم الأمور، كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وشاهد مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل)[1].

أما إذا أنفق الإنسان الوقت فيما خلق له من معرفة الله، والتزام بمنهجه، ودعوة إليه، وصبر على كل ذلك فقد تلافى الخسارة، بل حقق ربحا مجزيا، قال

تعالى: ﴿والعصر ۞ إن الإنسان لفي خسر ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ۞ ﴾ سورة العصر.

فالإيمان معرفة الله من خلال آياته الكونية، والتكوينية، والقرآنية، وتصديق بما أنزل على رسوله، من وحي متلو وغير متلو، ثم الاتصال به اتصالا محكما، يكون أساسا لإشراق الحقائق في النفس واصطباغها بالكمالات الإنسانية، وانغماسها في سعادة روحية، عندئذ يصبح الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضى بالحظوظ، ونور الأمل في الصدور.

والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان حقيقة إيجابية متحركة، فما إن تستقر في النفس حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في صورة عمل صالح، فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية، فهو مزيف أو ميت، لأن الإيمان ليس انكماشا وسلبية وانزواء، وليس مجرد نوايا طيبة لا تتمثل في حركة أو عمل.

والتواصي بالحق ضرورة، لأن النهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة، والتواصي بالحق: حق الفرد على الجماعة أو حق الجماعة على الفرد، وهو حركة الحق في اتجاه النمو، ومحاصرة الباطل، وما من أحد في المجتمع المسلم أصغر من أن يوصي بالحق، وما من أحد أكبر من أن يصغي إلى الحق وهو يسدي إليه، وإذا كان التواصي بالحق ضرورة للنهوض به وتوسيع رقعته، فإن التواصي بالصبر ضرورة للحفاظ عليه ومنع انكماشه وتراجعه.

في القرآن الكريم إشارات لطيفة ودقيقة إلى الوقت في حياة الإنسان، وحض على الاستفادة منه، ونهي عن الغفلة والتسويف وما كلمات (سارعوا) (سابقوا) إلا تأكيد لهذه المعاني، قال تعالى: ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ۞ ﴾ سورة البقرة

تشير هذه الآية إلى أن وجهة الإنسان الصحيحة، أو المنحرفة، ومواقفه المشرفة، أو غير المشرفة، وأعماله الصالحة، أو الطالحة، هي من كسبه وحده:﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير** ﴾.

وسوف يسأل عنها ويجازي عليها، قال تعالى:﴿ **فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ سورة الحجر.

وإن هذه الحرية في الكسب، هي التي تثمن عمله، إذ لولاها لما كان لأعماله من قيمة، ولما سعد بها وهذه الحرية في الكسب التي هي سر سعادته، فرصة ثمينة لا تتكرر، ولا تعوض، مرتبطة بعمر الإنسان، وتنتهي بالموت، لذلك أكدها ربنا بكلمتين الأولى:

- فاستبقوا الخيرات، والثانية: أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا.
- تنتهي حرية الكسب ويختم العمل ليجازي الإنسان.

هذا الوقت الذي هو رأسمال الإنسان، له خصائص منها:

- سرعة انقضائه، فهو يمر مر السحاب ويجري جري الرياح سواء أكان زمن مسرة أو فرح، أم كان زمن اكتئاب وترح، وإن كانت أيام السرور تمر أسرع، وأيام الهموم تسير أبطأ، لا في الحقيقة، ولكن في شعور صاحبها، ومهما طال عمر الإنسان، فهو قصير، مادام الموت نهاية كل حي، وعند الموت تتكمش الأعوام والعقود، حتى لكأنها لحظات كالبرق الخاطف، قال تعالى: ﴿**ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ سورة يونس.

ومن خصائص الوقت: أن ما مضى منه لا يعود ولا يعوض، قال الحسن البصري: "ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى: يا بن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة"

ولما كان الوقت سريع الانقضاء وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوض كان الوقت أنفس وأثمن ما يملك الإنسان، وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاء لكل عمل، فهو رأسمال الإنساني الحقيقي، إنه الحياة من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة قال الحسن البصري: "يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك".

ومن جهل قيمة الوقت فسيأتي عليه حين يعرف قيمته ونفاسته، ولكن بعد فوات الأوان، وقد ذكر القرآن موقفين يندم فيهما الإنسان على ضياع وقته، حيث لا ينفع الندم:

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حين يودع الدنيا، ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن وأخر إلى أجل قريب، ليصلح ما أفسد وليتدارك ما فات... قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ۞وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ۞ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون**﴾۞ سورة المنافقون الآية 9.

ويأتي الرد على هذه الأمنية الفارغة قاطعا ومانعا، بقوله تعالى: ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون۞** ﴾ سورة المنافقون.

الموقف الثاني: في الآخرة، حيث توفى كل نفس ما عملت وتجزي بما كسبت، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون إلى دار التكليف، ليعملوا عملا صالحا ولكن هيهات هيهات، فقد انتهى زمن العمل، وجاء زمن الجزاء، يقول تعالى:

﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور۞ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي**

كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور﴾ سورة فاطر.

والقرآن يحذر من الغفلة أشد التحذير، قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴿ ﴾ سورة الأعراف.

وآفة أخرى هي التسويق، قال الحسن البصري رحمه الله: إياك والتسويق فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غد لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لن تندم على ما فرطت في اليوم قيل لعالم: أوصنا، قال: "احذروا (سوف) فهي جند من جنود إبليس".

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى يمسي ويصبح آمنا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

قال ﷺ: "اغتنم خمسا قبل خمس، حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك"[2].

أكثر الناس يدعون لمن يحبونهم، أو لمن يسدي لهم معروفا، يدعون له بطول العمر، وهل يطول العمر؟ وإذا كان العمر يطول فما الذي يطيله؟

إن الإنسان مفطور على حب وجوده، وعلى سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، قال تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه، من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴿ ﴾ سورة البقرة.

والدين نفسه يعد طول العمر نعمة إذا اقترن بالعمل الصالح، فقد سئل النبي ﷺ: "أي الناس أفضل؟ فقال: من طال عمره وحسن عمله"[3].

لكن الموت ينغص على الإنسان حياته، فكثيرا ما يختطف الشاب، وهو في ريعان شبابه، والعروس ليلة زفافها، والوحيد لمدلل من بين يدي أهله، والغني المترف من أحضان نعمته، والقوي المرهوب من بين يدي خدمه وحشمه، لهذا سمي الموت هادم اللذات، مفرق الأحباب، مشتت الجماعات، وفي الحديث الشريف: "عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به"[4].

ولم يصل الطب الذي وصل إلى زرع قلب مكان قلب، ولا العلم الذي وصل بالإنسان إلى سطح القمر، أن يقاوم الهرم، ويعيد إلى الشيخ الشباب بعد أن رد إلى أرذل العمر، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: "ما أنزل الله داء إلى وأنزل له شفاء، إلا السام"[5]، أي الموت.

إذا فما دام عمر الإنسان محدودا بهذه الصورة فأنى له أن يطيله؟ وكيف يستطيع؟

الحقيقة أنه ليس عمر الإنسان الحقيقي، هو تلك السنوات التي يعيشها الإنسان من يوم ولادته إلى يوم وفاته، إن عمره الزمني أتفه أعماره، إنما عمره الحقيقي هو حجم العمل الصالح الخالص لله عز وجل.

قال صاحب الحكم: "رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده، ومن بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن من المنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة، ولا تلحقه ومضة الإشارة"

لهذا ورد في بعض الأدعية: "لا بورك في طلوع شمس يوم، لم أزدد فيه من الله علما، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم، لم أزدد فيه من الله قربا".

فالإنسان يستطيع أن يطيل عمره، بمقدار ما يوفق إليه من عباده الله تعالى، والإحسان إلى خلقه، وكلما توافر لعمله الإخلاص والإتقان كان الأحر والفضل أعظم عند الله.

وكلما اتسعت رقعة العمل فشملت أعدادا كبيرة من البشر حتى دخلت فيه الأمم والشعوب، وكلما امتد أمد العمل وطال حتى توارثت ثماره أجيال وأجيال، وكلما تغلغل العمل في كيان الإنسان كله المادي والنفسي والاجتماعي والروحي، حتى تحقق به وجود الإنسان وتألقت من خلال إنسانيته، وكان كما أريد أن يكون إذا كلما اتسعت رقعة العمل وعم خيره وطال أمده، واشتد تأثيره كان أعظم عند الله.

فالنبي ﷺ أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن دركات الجاهلية إلى أعلى مراتب الإنسانية، وغير وجه التاريخ البشري كله، إلى اليوم وإلى ما شاء الله، في ثلاث وعشرين سنة أقام فيها دينا جديدا، وربى عليه جيلا فريدا، وأنشأ أمة مثالية، وأسس دولة عالمية في هذا الزمن اليسير، على الرغم من كل الصعوبات والمعوقات، التي اعترضت سبيله من أول يوم.

ويزداد ثقل العمل في ميزان الحق وتتضاعف قيمته ومثوبته عند الله حينما تفسد المجتمعات، وتضطرب الأحوال، فيجوز الأمراء، ويتجبر الأقوياء، ويترف الأغنياء، ويداهن العلماء، وتشيع الفاحشة، ويظهر المنكر، ويختفي المعروف، قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: "عبادة في الهرج كهجرة إلي"[6].

وهنا محل الإشارة إلى أن الإنسان إذا رزق التوفيق في إنفاق وقته يستطيع أن يطيل عمره إلى ما شاء الله، بعد موته، فيحيا وهو ميت، ويؤدي رسالة وهو تحت التراب، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[7].

وفي حديث آخر تضمن تفضيلات لهذه الثلاث: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علم علمه ونشره، أو ولد صالح تركه، أو مصحف ورثه،

أو مسجد بناه، أو بيت لابن السبيل، أو نهر أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته"[8].

وأخرج مسلم في صحيحه: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا إلى يوم القيامة"[9]

وويل لمن انقضت آجالهم وضلالاتهم، وآثامهم باقية من بعدهم، وهنيئا لمن كانوا تحت الثرى، والناس مهتدون بهديهم سعداء بأعمالهم.

يقول الإمام علي كرم الله وجهه: "إنه ليس شيء شر من الشر إلا العقاب، وإنه ليس شيء خير من الخير إلا الثواب، وكل شيء في الدنيا سماعه خير من عيانه، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع ومن الغيب الخبر، واعلموا أن ما نقص من الدنيا، وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة، وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح، وكم من مزيد خاسر، واعلموا أن الذي أمرهم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، ذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع وقد تكفل لكم بالرزق، وأمرتم بالعمل، فلا يكن المضمون لكم طلبة أولى بكم من المفروض عليكم، فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل".

الهوامش:

---

[1]- ذكر الهندي في كنز العمال عن علي 288/2 برقم4027

[2]- رواه الحاكم وصححه، ورواه غيره انظر كشف الخفاء167/1

[3]- رواه الترميذي. وقال حديث حسن

[4]- قال العجلوني في كشف الخفاء 77/2: رواه أبو الشيخ وأبو نعيم والحاكم وصحح إسناده، وحسنه العراقي

[5]- أخرجه البخاري 112/10

[6]- أخرجه مسلم 2948. والترميذي2202

[7]- رواه مسلم عن أبي هريرة

[8]- رواه ابن ماجه242 وابن خزيمة في صحيحه 2490. ط: المكتب الإسلامي

[9]- رواه مسلم 1017. والنسائي 75/5 والحديث تتمة

عنها الفارابي في بناء مدينته الفاضلة، فجعلت المبحث الأول في الإيمان بالله تعالى، والمبحث الثاني في الحكمة، والمبحث الثالث في الاجتماع الإنساني والتعاون. **وأما الخاتمة** فأثبت فيها أهم نتائج البحث. والله تعالى أسأل السداد والثبات والقبول...

تمهيد

التعريف بالفارابي (محمد بن محمد بن طرخان ت:339هـ)

هو شيخ الفلسفة أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي الفارابي، نسبة إلى مدينة فاراب، صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى والعلوم الفلسفية، وكان يعرف عدة لغات، وكان أكثر تصنيفه في الرقاع ولم يصنف في الكراريس إلا القليل؛ فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولا وتعاليق ويوجد بعضها ناقصا مبتوراً. خرج من بلده وتنقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي، فشرع في اللسان العربي فتعلمه وأتقنه غاية الإتقان، ثم اشتغل بعلوم الحكمة وألف بها معظم كتبه، ثم سافر منها إلى دمشق ثم توجه إلى مصر ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، وسلطانها يومئذ سيف الدولة بن حمدان فأحسن إليه.

وكان زاهداً لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم، اقتصر عليها الفارابي لقناعته، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق

المبحث الأول: الإيمان بالله تعالى يرى الفارابي أن معرفة الله تعالى وصفاته أول ما يجب على أهل المدينة الفاضلة[1]، وقد تحدث باستفاضة عن ذلك، وخلاصة رأيه أن الموجود الأول[2] هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات، وهو بريء من جميع أنحاء النقص، فوجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود، وهو ليس بمادة ولا قوامه في مادة ولا في موضوع أصلاً، فهو مباين لكل ما سواه. هذا رأيه

في الصفات السلبية، وأما رأيه في صفات الله تعالى الثبوتية من العلم والإرادة والقدرة وغيرها فهي عين ذاته[3].

وهذا رأي أكثر فلاسفة الإسلام في صفات الله تعالى، فهو واحد من كل جهة، حيث لا فصل له، ولا جنس، ولا حدّ، ولا ضد، ولا قسمة له في الكم ولا في الكيف[4]. وأرى أن الكلام في ذاته سبحانه وتعالى وصفاته مطلب لا يُنال، ولن يصل الإنسان بذلك إلى شيء سوى الحيرة والتردد؛ ذلك أن المخلوق لا يحيط بخالقه، وقد اعترف الفلاسفة وغيرهم على أن كنه ذاته تعالى لا تُدرك، أقول: وكذلك صفاته لا يُدرك كنهها، فكيف بعد هذا الاعتراف بالعجز لا نقف عند قوله تعالى:﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[سورة الأنعام: الآية: 103] . ونقف عند قوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[سورة الشورى: الآية: 11]

ولا أريد التفصيل أكثر من هذا حتى لا نخرج عن مقصود هذا المبحث وهو الحديث عن الإيمان بالله تعالى من حيث إنه الأساس الأول في بناء المدينة الفاضلة، وواجب على جميع أهل المدينة معرفة ذلك، والمعرفة عند الفلاسفة لا تعني النظر فحسب، بل هي نظرية وعملية. فالدعوة إلى معرفة الله تعالى تعني عند الحكماء التشبه بأفعاله سبحانه وتعالى كما سيأتي في تعريف الحكمة، ومن ثمّ فإن الإيمان الذي دعا إليه الفارابي هو الإيمان الصحيح وأكد ذلك حيث قال:"والمدن الجاهلة والضالة إنما تحدث متى كانت الملة مبنية على بعض الآراء القديمة الفاسدة"[5]. ولا شك أن للعقيدة الصحيحة أهمية كبيرة في بناء الأمم، يقول مالك بن نبي:"ومن المعلوم أنه حين يبتدئ السير إلى الحضارة لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء والعلوم، ولا من الإنتاج الصناعي أو الفنون، تلك الأمارات التي تشير إلى درجة من الرقي؛ بل إن الزاد هو المبدأ الذي يكون أساساً لهذه المنتجات جميعاً ... فالحضارة لا تُبعث إلا بالعقيدة الدينية"[6]. ويرى كلٌّ من غستاف لوبون[7]

وتوينبي[8] أن الارتقاء الروحي للنفوس البشرية والتمسك بمبادئها الدينية هي على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم وتقدمها .

وأرى أن هذا الأساس في بناء الأمم يتلخص في قوله تعالى:﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[سورة العصر: الآية1-3] . فهذا هو الذي يقيم المدينة الفاضلة على مدى العصور؛ لأن الله تعالى أقسم بالعصر – ودلالة العصر هنا واضحة – والمقسوم عليه هو خسران الإنسان، والإنسان هنا للجنس، وقد استثنى منه مَنْ آمن بالله وعمل بمقتضى ذلك الإيمان.

وقد دعا القرآن الكريم إلى هذا الأساس الذي يحيي الإنسان والأكوان حيث قال الله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[سورة الأنفال: الآية 24] . إنها دعوة إلى الحياة الطيبة، طريقها الإيمان بالله تعالى والعمل بشريعته، فقوله:﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: لكل حق وصواب، والحياة التي يحييها هي الحياة الطيبة الدائمة[9]،كما قال الله تعالى في موضع آخر:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[سورة النحل: الآية 97] والحياة الطيبة هي السعادة التي أرادها الفارابي لأهل المدينة الفاضلة.

إذن فنظرة الفارابي كانت صائبة في أن الإيمان بالله تعالى هو الأساس الأول في بناء وبقاء المدينة الفاضلة، وإن اختلفنا معه في رؤيته الفلسفية عن الله تعالى وصفاته. ثم يتحدث الفارابي عن الأساس الثاني في مدينته وهو الحكمة:

المبحث الثاني: الحكمة

الحكمة هي"علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان"[10]. أو"التشبه بأفعال الله بقدر طاقة الإنسان"[11]. فهذان التعريفان للحكمة يؤكدان شموليتها لجميع العلوم، فمن مقاصدها وموضوعاتها: معرفة الرياضيات والطبيعيات والإلهيات والأخلاق

والسياسة[12]. ويؤكد هذه الشمولية أيضا تقسيم الفلاسفة للحكمة، فقد جعلوها على قسمين: الأول: الحكمة النظرية، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: العلم الطبيعي، والعلم الرياضي، والعلم الإلهي. والثاني: الحكمة العملية، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام أيضا: سياسة الإنسان نفسه، وسياسته المنزل، وسياسته المدينة[13]. ولا يكون الفيلسوف فيلسوفا كاملا إلا إذا حصلت له الفضائل النظرية أولاً ثم الفضائل العملية ثم تكون له القدرة على إيجادها في الأمم والمدن[14].

وقد قدمت هذه المقدمة لنعرف مقصد الفارابي من الكلام عن مراتب الموجوات وكيفية صدورها عن الموجود الأول بعد كلامه عن الذات والصفات، فلا بد ــ كما قال ــ لأهل المدينة الفاضلة من الحكمة أي: العلم بالموجودات [15]، ولهذا تكلم عن كيفية صدورها وعن مراتبها، وتكلم عن الأجسام السماوية وما يتصل بها، ثم تكلم عن أجزاء النفس الإنسانية وقواها، وختم الكلام عن الوحي ورؤية الملك. وأرى أن أغلب ما ذكره في هذه المسائل مخالف لما قررته الشريعة الإسلامية، ولا يمكن في مثل هذا البحث أن نناقش كل هذه المسائل؛ ولهذا سنقف عند أهم مسألتين: الأولى في كيفية صدور الموجودات عن الموجود الأول، والثانية: في كيفية الاتصال بالعقل الفعّال.

المسألة الأولى: في كيفية صدور الموجودات عن الموجود الأول:

تتلخص هذه المسألة في نظرية الفيض، هذه النظرية التي يرجع أصلها إلى أفلوطين(الشيخ اليوناني)، وقد تأثر بها على وجه الخصوص كلٌّ من الفارابي وابن سينا[16].

وتتلخص هذه النظرية كما رأى الفارابي بأن أول المبدعات عن الباري ﷻ هو العقل الأول، ولهذا العقل جهتان: جهة إمكان وجهة وجوب، فهو بذاته ممكن الوجود، وبالأول واجب الوجود، فيلزم عنه من حيث إنه واجب الوجود عاقل للأول وجود عقل ثان، ويلزم من حيث هو ممكن الوجود عاقل لذاته الفلك الأعلى بمادته

وصورته التي هي نفسه، ويوجد عن هذا العقل الثاني عقل وفلك آخر ... وهكذا إلى أن تنتهي إلى آخر العقول وهو العقل الفعّال الذي يكون سببا للنفوس الأرضية من جهة تعقله للعقل السابق له، ويصدر عنه الاسطقسات[17] من جهة تعقله لذاته[18].

هذه خلاصة نظرية الفيض في كيفية صدور العالم عن المبدأ الأول الحق ﷻ وقد اعترض عليها إخوانه من الفلاسفة أنفسهم، كأبي البركات البغدادي[19] وابن رشد[20].

فالبحث عن كيفية صدور الفعل من الله ﷻ بالإرادة فضول وطمع في غير مطمع، وما المانع من أن يقال: المبدأ الأول عالم مريد قادر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، يخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد، فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر، وقد ورد به الأنبياء المؤيدون بالمعجزات، فلنتقبل مبادئ هذه الأمور من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ إذ العقل ليس يحيلها، ولنترك البحث عن الكيفية والكمية والماهية، فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية[21].

المسألة الثانية: في كيفية اتصال النبي بالوحي:

يرى أكثر فلاسفة الإسلام أن النبوة كمال للنفس الناطقة، تستعد به لأن تفيض عليها المعارف من العقل الفعّال، لصلاح عالمي البقاء والفساد[22]. فالعقل الفعّال عنده صور الأشياء بالفعل، وهو موجد المعقولات ومفيضها، فبعد أن يترقى الإنسان في مراتب الإدراكات العقلية التي تبدأ بالعقل بالقوة أو الهيولاني ثم العقل بالملكة ثم العقل بالفعل ثم العقل المستفاد فيتصل أعلاها وهو العقل المستفاد بالعقل الفعّال[23]. ولأجل أن العقل الفعّال فائض عن وجود السبب الأول فيمكن أن يقال أن السبب الأول هو الموحي إلى هذا الإنسان بتوسط العقل الفعّال، فيكون ما يفيض من الله تعالى إلى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعّال إلى العقل المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم إلى قوته المتخيلة، فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما

فيلسوفا، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيا مخبرا بالجزئيات، وهذا الإنسان هو في أكمل المراتب وأعلى درجات السعادة[24].

هكذا فسَّر الفارابي وغيره من فلاسفة الإسلام ظاهرة الوحي، ويُلاحظ مما ذكروه أنهم سووا بين الأنبياء والحكماء في تلقي المعارف من العقل الفعَّال، فالمعرفة عموما لا تتم إلا بمساعدة العقل الفعَّال، فهو الذي يصيِّر العقل بالقوة (الهيولاني) عقلا بالفعل، فإن منزلة العقل الفعَّال من الإنسان بمنزلة الشمس التي تعطي البصر الضوء، فيصير البصر بالضوء الذي استفاد من الشمس مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة، وبذلك الضوء أيضا تصير الألوان بالفعل[25]. وقد جعلوا اتصال النبي بالعقل الفعَّال عن طريق المخيلة، بينما جعلوا اتصال الفيلسوف عن طريق عقله المنفعل، وظاهر هذه التفرقة بين النبي والفيلسوف تشير إلى تقدم الفيلسوف على النبي، وبناء على هذا التفسير لكيفية تلقي النبي للوحي ألزم جمهور علماء المسلمين الفلاسفة أمورا ثلاثة[26]: **الأول**: أن النبوة كسبية. **والثاني**: أن الفيلسوف أفضل من النبي؛ لأن الفيلسوف يتلقى تعاليمه من العقل الفعَّال عن طريق العقل، أما النبي فيتلقى تعاليمه عن طريق المخيلة، وليس هناك شك ــ كما قال أحد الباحثين ــ في أن المعلومات العقلية أفضل وأسمى من المعلومات المتخيلة[27]. **والثالث**: أن تفسيرهم لظاهرة الوحي عموماً مخالف للنصوص الشرعية التي تحدثت عن نزول الوحي وكيفية تلقي النبي له؛ لأن الملائكة عندهم صور عقلية مجردة ليست لها حقيقة نزول وصعود كما ورد في النصوص الشرعية. **فخلاصة** القول أن الفلاسفة عندما زجوا بقضية النبوة تحت قضايا العقل ومباحثه لزمهم القول بكسبها، وقد جعلوا الفاصل بين النبي والفيلسوف فاصلا دقيقا في نظرهم، حتى إنك لا تستطيع أن تعرف هوية رئيس مدينتهم الفاضلة أفيلسوف هو أم نبي تفلسف؟[28].

وأما حديث القرآن الكريم عن النبوة وكيفية اتصال النبي بالوحي فيختلف عما ذكره الفلاسفة، فالنبوة ليست كسبية وإنما هي وهبية كما قال الله تعالى: ﴿قالت

لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[سورة إبراهيم: الآية: 11]. فالرسل جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنّه عليهم، وفي هذا دليل على أن النبوة عطائية[29]. واتصال النبي بالوحي يكون على أحد ثلاثة أوجه[30] جمعها قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: الآية:51]. فالوحي هنا هو الإلهام والقذف في القلب في اليقظة أو في المنام ، فهذا الوجه الأول لمعنى الوحي، وأما الوجه الثاني فهو أن يُسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضاً وحي، بدليل أن الله تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيا[31]، وهذا معنى قوله ﷻ:﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. وأما الوجه الثالث فهو أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغه الوحي، وهذا معنى قوله ﷻ:﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾. قال الفخر الرازي:"واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي؛ لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى"[32].

ويلاحظ أني قد توسعت في بيان هذه المسألة، والسبب في ذلك أن مسألة الاتصال بالعقل الفعال عند الفارابي من أهم الأسس التي تقوم عليها المدينة الفاضلة، وقد ربط قيام المدينة الفاضلة وجوداً وعدماً بوجود رئيسها الذي لا بد أن يكون نبياً أو فيلسوفاً، فإن لم يتفق أن يوجد هذا الرئيس(النبي أو الفيلسوف) لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك[33]. **فمن هو رئيس المدينة الفاضلة وما هي خصاله؟**

يرى الفارابي أن مرتبة رئيس المدينة الفاضلة كمرتبة العقل إلى سائر أعضاء البدن، أو كمرتبة السبب الأول إلى سائر الموجودات، وكما أن سائر

أعضاء البدن تخدم العقل وكذلك سائر الموجودات تقتفي غرض السبب الأول فكذلك ينبغي على أهل المدينة الفاضلة الاحتذاء حذو مقصد رئيسها الأول.

وهذه المرتبة لا تُعطى إلا لِمَنْ اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة قد فُطِر عليها فضلا عن اتصاله بالعقل الفعال الذي أشرنا إليه، فيجب أن يكون: 1ـ تام الأعضاء 2ـ جيد الفهم والتصور 3ـ جيد الحفظ 4ـ جيد الفطنة ذكيا 5ـ حَسَن العبارة 6ـ محبا للتعليم والاستفادة 7ـ غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح(عفيفا) 8 ـ محبا للصدق وأهله ومبغضا للكذب وأهلـه 9ـ كبير النفس محبا للكرامة 10ـ أعـراض الدنـيا هينة عنده 11ـ محبا للعدل وأهله ومبغضا للظلم وأهلـه، عدلا غيـر صعب القياد ولا جموحا ولا لجوجا 12ـ قوي العزيمة جسورا غير خائف ولا ضعيف النفس[34].

ولكن كيف ستكون المدينة الفاضلة في حال عدم وجود هذا الرئيس؟ يرى الفارابـي في حال عدم وجود الرئيس(النبي أو الفيلسوف) أن تسير المدينة الفاضلة علـى الشرائع والسنن التي شرعها ذلك الرئيس، ويكون الرئيس الثاني الذي يخلف الأول مَنْ اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشرائط التي سبق ذكرها **عدا الاتصال بالعقـل الفعـال**، ويكون بعد كبره فيه ستة شرائط: 1ـ أن يكون حكيما. 2ـ وأن يكـون عالما حافظا للشرائع والسنن التي شرعها الرئيس الأول محتذيا بأفعاله كلها حـذو تلـك بتمامها. 3ـ وأن يكون له جودة استنباط فيما لا يُحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذيا حذو الأئمة الأولين. 4ـ وأن يكون له جـودة رؤية وقوة استنباط لما سبيله أن يُعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمـور والحـوادث التـي تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون ويكـون متحـريا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة. 5ـ وأن يكون له جودة إرشاد بالقـول إلـى شرائع الأولين وإلى التي استنبطت بعدهـم مما احتذى حذوهم. 6ـ

وأن يكـون لـه جـودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب وذلك أن يكون معه الصناعة الحربية[35].

فإذا لم توجد هذه الخصال في إنسان ووجدت في اثنين أحدهما حكيم والثاني فيه الشرائط الباقية كانا هما رئيسي المدينة، فإذا تفرّقت هذه الخصال في جماعة وكانت الحكمة في واحد وكانوا متلائمين كانوا هم الرؤساء الأفاضل.

ونلاحظ أن الفارابي يركّز على **الحكمة** كشرط ضروري في رئيس المدينة الفاضـلة، فلـو اجتمعت جميع الخصال في إنسان واحد عدا الحكمة فإن المدينة لم تلبث أن تهلك، يقول:"فمتى اتفق في وقت ما أن لم يكن الحكمة جزء الرئاسة وكانت فيها سـائر الشرائط بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك، وكان المدينة تعرض للهلاك، فإن لم يتفق أن يوجد حكيم يضاف إليه لـم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك"[36]. ويبدو في هذه الرؤية الفارابية لرئيس المدينـة الفاضـلة ــ كما قال أستاذنا الدكتور حسن الشافعي ــ الأثر الأفلوطوني المحـدث بالإضـافة إلى الصبغة أو الأثر الإسلامي الذي صبغ بها الفارابي الآراء الأفلاطونية[37]. وبعد بيان رؤية الفارابي في الأساس الثاني الذي تقوم عليه المدينة الفاضـلة وهـو الحكمة أو الفلسفة بمفهومها الشامل **نتساءل عن مدى موافقة هذه الـرؤية للشريعة الإسلامية؟** وفي الجواب أقول: أما ما يتعلق بالنبوة فقد سبق بيان الـشريعة فـيها، وأمـا ما يتعلق بخصال الإمام أو رئيس المدينة فأغلبها متفق مع الشروط التي اشترطها الفقهاء في أهل الإمامة[38]، وإذا وجد النبي فلا شك أنه هو إمام المدينة الفاضلة، **ولكن ماذا بعد النبي؟** هنا الخلاف الكبير بين الرؤية الفارابية والـشريعة الإسلامية، فالفارابي يرى أن أول شرط في الإمام الذي يخلف النبي أن يكـون حكـيما أي: فيلـسوفا، والفيلسوف عنده مَنْ له القدرة على الاتصال بالعقل الفعال، وهذا الشرط بالإضافة إلى الشروط السابقة تختص برجل واحد على التوالي كمـا زعـم الفارابي حيث قال:"واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عسر؛ فلذلك لا

يوجد مَنْ فُطِر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد"[39]. ويظهر من كلام الفارابي أن هذا الإمام معصوم عن الخطأ؛ ولهذا يجب على أهل المدينة طاعته وخدمته واقتفاء أثره، مثلما تطيع أعضاء البدن العقل، ومثلما تطيع الأسباب الثواني السبب الأول!! وهذا الشرط لا يتفق مع الشريعة الإسلامية، بل هو باطل؛ لأن مسألة الاتصال بالعقل الفعال باطلة، ومن ثَمّ فالعصمة باطلة، والطاعة والخدمة الحقيقية ليست إلا لله سبحانه وتعالى، فالإمامة ليست أكثر من "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها"[40]. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا[41]. هذه هي وظيفة الإمام، وليست هناك سلطة مطلقة له، ولا طاعة عمياء كما يرى الفارابي.

والحكمة في القرآن الكريم هي اسمٌ جامعٌ لكل علم حسن وعمل صالح[42]، وقد حثّ القرآن على تعلمها واعتبرها جامعة للخير كله فقال الله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[سورة البقرة: الآية: 269]. أجل إن الحكمة مطلب شرعي في بناء المدينة الفاضلة، ولكن ليست هي حكمة الفارابي التي لم تنزل إلى الأرض من لدن العقل الفعال! فما زالت مدينته وجمهورية أفلاطون في الخيال؛ لأنها أسست على الخيال لا على الواقع أو الشرع الصحيح.

هذا هو الأساس الثاني في بناء المدينة الفاضلة فماذا عن الأساس الثالث؟ هذا ما سنعرفه في المبحث الثالث.

المبحث الثالث: الاجتماع الإنساني والتعاون

يرى الفارابي أن الإنسان خُلِقَ مفطورا على الاجتماع مع الآخرين، فلا يمكنه أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل واحد بهذه الحال؛ فلذلك لا بد من الاجتماعات الكثيرة والتعاون ليقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في

قوامه[43]. والفارابي لا يدعو إلى أيّ تعاون، وإنما يدعو إلى التعاون على الأشياء التي تحقق للمدينة السعادة، والسعادة عنده تتفاضل بثلاثة أنحاء: بالنوع والكمية والكيفية[44].

وقد قسّم الفارابي الاجتماعات الإنسانية إلى اجتماعات كاملة وغير كاملة: فأما الاجتماعات الكاملة فهي ثلاثة: **عظمى** وهي اجتماعات أهل المعمورة كلها، **ووسطى** وهي اجتماع أمة في جزء من المعمورة، **وصغرى** وهي اجتماع مدينة في جزء من الأمة، وأما الاجتماعات غير الكاملة فاجتماع أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل، ورأى أن المحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة إلا أن القرية خادمة للمدينة والمحلة جزؤها، فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص!!

ومثّل لتعاون أهل المدينة الفاضلة بالبدن التام الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياته، فكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة بالفطرة والطبع، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاء تقرب مراتبها إلى ذلك الرئيس، وكل واحد منها جُعلت فيه بالطبع قوةٌ يفعل بها فعله ابتغاء غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة، فهذه في المرتبة الثانية، وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية... ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تُخدم ولا تُخدم ويكونون في أدنى المراتب ويكونون هم الأسفلون! غير أن أعضاء البدن طبيعية والهيئات التي لها طبيعية، وأجزاء المدينة وإن كانوا مفطورين بالطبع بفطر متفاضلة فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم ليست طبيعية بل إرادية. هذه خلاصة رؤيته في الأساس الثالث الذي تقوم عليه مدينته، **ولكن هل تتفق هذه الرؤية مع الشريعة الإسلامية؟**

أولاً: إن ما ذكره من ضرورة الاجتماع الإنساني والتعاون فهذا أمر واقع، فالإنسان مدني بالفطرة، حيث خلقه الله ﷻ وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة[45]. وقد حثّ القرآن الكريم الناس على التعاون الذي يحقق لهم السعادة فقال ﷻ:﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[سورة المائدة: الآية 2].

ثانياً: إن ما ذكره من اختلاف في درجات الناس فهذه سنة إلهية، فقد قضى الله تعالى أن يكون الناس متفاضلين كما قال:﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[سورة الزخرف: الآية 32] فالاختلاف ضرورة لازمة للاجتماع الإنساني، فسبحان الذي جعل من اختلاف الناس هذا سبباً في اجتماعهم! فقوله تعالى:﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ أي: يخدم بعضهم بعضاً، فكل إنسان محتاج للآخر، وبهذا يكون بعضهم مسخراً لبعضهم الآخر[46]. يقول الزمخشري:"فاوت بينهم في أسباب العيش وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدماً؛ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا، ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم"[47].

فحاجة الناس إلى بعضهم فطرة أصيلة في نفوسهم لا تزايلهم ومحيطة بجماتهم ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، فلم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه، فلا بدّ لتسخير بعضهم بعضاً[48]. فلو سوّى الله تعالى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحداً، ولم يصبح أحد منهم مسخراً لغيره؛ وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا[49].

ثالثاً: أرى أن رؤية الفارابي في تقسيم الاجتماعات إلى كاملة وغير كاملة، والاجتماعات غير الكاملة خادمة للكاملة، وهي تخدم ولا تُخدَم وهي في أدنى المراتب لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، والاختلاف في درجات الناس الذي سبق بيانه لا يعني الطبقية التي ذكرها الفارابي المستوحاة من جمهورية أفلاطون[50]. فالعلاقة بين الفاضل والمفضول نظمها الإسلام أيما تنظيم، فمن النصوص في ذلك قوله تعالى:﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [سورة النحل: الآية71] فالآية الكريمة بيّنت في أولها تفاضل الناس في الهيئات والملكات ــ وهذه من الرزق بمفهومه العام بمعنى أن كل ما تملك هو رزق من الله تعالى ــ ثم بيّنت بعد ذلك ما ينظم هذا التفاضل أو العلاقة بين الفاضل والمفضول، والمعنى:"جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم"[51]. وقد حثّ النبيﷺ إلى هذه الأخلاق الفاضلة فقال في شأن الخدم: **(إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون)**[52].

ومن النصوص المحكمة في ضبط هذا التفاضل أيضاً قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [سورة الحجرات: الآية 13] فقد بيّنت هذه الآية اختلاف الأمم والمجتمعات، فلكل أمة لغتها وصفاتها وعاداتها حتى لونها وشكلها، هكذا أراد الله تعالى للناس أن يكونوا، فقد جعلهم مجتمعات يتمايز بعضها عن الآخر ببعض الصفات التي جعلها أسباباً للتعارف، فقوله تعالى:﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾ يشمل أنواع التعارف، كالمعارف والعلوم والقدرات... وكل ما هم محتاجون إليه[53]. إذن فالحكمة من اختلاف المجتمعات هي التعارف؛ ولهذا عقّب الله تعالى بقوله﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ ليدفع ما كان عليه الناس من سوء فهم لهذا الاختلاف؛ إذ

كانوا يتفاضلون بأنسابهم ومواهبهم وغير ذلك، وما عليه الناس- اليوم - من تمييز عنصري وتفاوت طبقي، فكرامة الفرد والأمة بما تكون عليه من عقيدة صحيحة، وعمل صالح تنعم به البشرية، فالتفاوت بين الناس ــ كما قال الفخر الرازي ــ تفاوت في الحس لا في الجنس؛ إذ كلهم من أب واحد[54]. ويرى ابن عاشور في قوله تعالى﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أنه لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى، مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس، مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والعرافة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم، وفي الفضائل، وفي العائلات"[55].

وقد جاء في الحديث عن النبيﷺ: **(إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)**[56]. وقولهﷺ: **(الناس معادن كمعادن الفضة والذهب خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)**[57]. فقد قررت هذه الأحاديث مسألة الاختلاف، فهناك صور وأجسام مختلفة، ومثل الناس كمثل المعادن فيها الجيد وفيها غير ذلك، فالتفاوت حاصل والتفاضل واقع ولكن القرآن الكريم والسنة المطهرة يوجهان هذا الاختلاف نحو هدف رفيع، فيربطان الخيرية بالإسلام، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، أي: إذا صار الفقه والفهم سجيتهم وطبيعتهم.

وبهذه التوجيهات القرآنية والنبوية يستطيع الإنسان بناء المدينة الفاضلة واقعا لا حلما، وقد تحققت هذه المدينة الفاضلة في مدينة رسول اللهﷺ حتى صارت علما فإذا ما أطلقت كلمة المدينة فهي المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث الذي تناول أهم أسس المدينة الفاضلة عند الفارابي يلاحظ أنه كان متأثرا بآراء أفلاطون في جمهوريته وكذلك بآراء أفلوطين(الأفلاطونية المحدثة)، ولكن لم أثبت هذه الملاحظة كنتيجة في البحث؛ لأنني درست آراءه من حيث موافقتها للشريعة الإسلامية أو عدم موافقتها، أما النتائج المتصلة بالبحث مباشرة فأثبت أهمها وهي:

أولا: إن ما ذكره الفارابي من ضرورة الإيمان بالله تعالى والحكمة والاجتماع الإنساني والتعاون لبناء وبقاء المدينة الفاضلة وتحقيق السعادة، هذه كلها من حيث الجملة لا تختلف عن الشريعة الإسلامية؛ بل إن الشريعة قد دعت إليها، وقد تحققت هذه المدينة الفاضلة في عهد رسول اللهﷺ في المدينة المنورة واقعا لا خيالا.

ثانيا: إن آراء الفارابي في الله تعالى وصفاته خوض في غيب لا يُعْرَف كنهه إلا الله تعالى؛ ولهذا يجب الإيمان بها والوقوف عند حدود ما ذكره الباري سبحانه وتعالى عن نفسه.

ثالثا: إن نظرية الفيض عند الفارابي يلزم منها قدم العالم قدماً زمانيا؛ ولهذا لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، ذلك أن الله تعالى خلق الخلق من العدم وعلى كيفية لا نعرفها، وهو وحده المتصف بالقدم.

رابعا: ثبت كذلك خطأ الفارابي في كلامه عن النبوة وكيفية الاتصال بالعقل الفعّال، فالوحي في الشريعة الإسلامية مستقل عن شخص النبي، وليس لغير النبي الاتصال بالوحي، وقد خُتِمت النبوة بخاتم الأنبياء سيدنا محمدﷺ .

خامساً: ما ذكره الفارابي في تقسيم الاجتماعات إلى اجتماعات كاملة وغير كاملة، وأن الاجتماعات غير الكاملة تخدم ولا تُخْدَم وهم الأسفلون؛ هذا تقسيم طبقي طبعي بعيد عن فهم سنة الاختلاف والتفاضل التي ذكرها القرآن الكريم، فالاختلاف

بين البشر وجعلُ بعضهم فوق بعض درجات سنة إلهية أراد الله تعالى منها التكامل والتعارف لا التعالي والتنازع والتهارج.

الهوامش

(1) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 69 .

(2) هـذا مصطلح فلسفي أي: الله تعالى في المفهوم الشرعي. وكذلك يقول الفلاسفة عن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود .

(3) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 8 .

(4) انظـر: ابـن سينا: الشفاء(الإلهيات): 2 / 354، وابن طفيـل: حي ابن يقظـان: 97 ، والسهروردي: هياكل النور: 20

(5) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 71 .

(6) شروط النهضة: 32 .

(7) انظر: سر تطور الأمم: 129 – 132 .

(8) انظر: مختصر دراسة للتاريخ: 3 / 152 .

(9) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 15 / 152 .

(10) الكـندي: رسائل الكندي الفلسفية(رسالة في الفلسفة الأولى) : 97 ، والفارابي: الثمرة المرضية(كتاب الجمع بين رأي الحكيمين): 1 .

(11) الكندي: رسائل الكندي الفلسفية(رسالة في حدود الأشياء ورسومها): 121 .

(12) انظر: الفارابي: الثمرة المرضية(كتاب الجمع بين رأي الحكيمين): 2 ، والغزالي: مقاصد الفلاسفة: 3 .

(13) انظـر: الفارابـي: رسـائل الفارابي(رسالة التنبيه على السعادة): 20 ، وابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات: 105، ومسكويه: كتـاب السعادة: 55، و70.

(14) انظر: الفارابي: رسائل الفارابي(رسالة تحصيل السعادة): 39 .

(15) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 69 .

(16) انظـر: الدكـتور يحيى هويدي: محاضرات في الفلسفة الإسلامية: 154، والدكتور محمود قاسم: الفيلسوف المفتـرى عليه ابن رشد: 131 ، والدكتور حسن الشافعي: التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية: 43 ، والدكتور غسان خالد: أفلوطين رائد الوحدانية ومنهل الفلاسفة العرب: 7

(17) هي الماء والنار والهواء والتراب .

(18) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 19 .

(19) انظر: المعتبر في الحكمة: 3 / 156 .

(20) انظر: تهافت التهافت: 1 / 301 .

(21) انظر: الغزالي: تهافت الفلاسفة: 144 وما بعدها .

(22) انظر: ابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات(رسالة في إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم): 124، ورسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء: 3 / 32 ، و4 / 182 .

(23) انظر: أرسطو: كتاب النفس: 108 ، والفارابي: الثمرة المرضية(مقالة في معاني العقل): 39 ، وآراء أهل المدينة الفاضلة: 44 ، وابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة (رسالة في إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم): 126 .

(24) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 58 .

(25) انظر: أرسطو: كتاب النفس: 108 ، والفارابي: الثمرة المرضية(مقالة في معاني العقل): 39 ، وآراء أهل المدينة الفاضلة: 44 ، وابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة(رسالة الحدود): 79 ، (رسالة في إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم): 126 .

(26) انظر: ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل: 5 / 353 ، والإيجي: كتاب المواقف: 3 / 336 .

(27) انظر: الدكتور إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية: 96 .

(28) انظر:الدكتور عبد الفتاح الفاوي: النبوة بين الفلسفة والتصوف: 88 ، والدكتور راجح عبد الحميد الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: 760 ، والدكتورة مرفت عزت بالي: الإتجاه الإشراقي في فلسفة ابن سينا: 499 .

(29) انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3 / 157 ، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 216/7 .

(30) انظر: الزمخشري: الكشاف: 4 / 226 ، والنيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 10 / 88 ، والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5 / 66 ، والألوسي: روح المعاني: 13 / 60 .

(31) قال تعالى:﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [سورة طه: الآية: 11ـ 13] .

(32) مفاتيح الغيب: 27 / 187.

(33) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 61 .

(34) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 59 .

(35) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 60 .

(36) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 61 .

(37) انظر: التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية: 75 .

(38) انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية: 7 .

(39) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 60 .

(40) ابن خلدون: المقدمة: 134 .

(41) انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية: 5 – وابن خلدون: المقدمة: 134 .

(42) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 2 / 224.

(43) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: 53 .

(44) انظر: المصدر السابق: 65 .

(45) انظر: ابن خلدون: المقدمة: 30.

(46) انظر: الطبري: جامع البيان: 25 / 67– وابن كثير : تفسير القرآن العظيم: 7 / 213

(47) الزمخشري: الكشاف: 4/ 241 .

(48) انظر: الجاحظ: كتاب الحيوان: 1 / 43 .

(49) انظر: الرازي : مفاتيح الغيب: 27 / 210 .

(50) انظر: الدكتور حسن الشافعي: التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية: 69 – والدكتور حامد طاهر: المدينة الفاضلة بين أفلاطون والفارابي(دراسة مقارنة): 84 .

(51) الزمخشري: الكشاف: 2/ 595 .

(52) أخرجه الإمام مسلم: كتاب الإيمان: باب إطعام المملوك مما يأكل .

(53) انظر: الألوسي: روح المعاني: 13/ 313

(54) انظر : الرازي : مفاتيح الغيب : 28/ 137 .

(55) التحرير والتنوير: 26/ 262 .

(56) أخرجه الإمام مسلم: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره .

(57) أخرجه الإمام مسلم: كتاب البر والصلة والآداب: باب الأرواح جنود مجندة .